الخدمة الاجتماعية فى سجون انجلترا

للأستاذ على حسنى ابراهيم

يعنى ألا نسى أنه حتى بعد ادخال جميع التحسينات المادية فى السجون والتوفيق بين شتى العناصر التى تؤدى الى رفع مستوى نزلائها ، وتقديم الغذاء الذى يكفل لهم الصحة والقوة ، وقيام الأطباء ورجال الدين والزائرين الاجتماعيين بواجبهم نحوهم — بعد هذا كله سيظل نزلاء السجون محرومين من كل ما يمكن أن يطلق عليه الرجل الحر اسم " الحياة " .

وستون تشرشل

نبذة تاريخية :

أتى على نظم السجون فى انجلترا حين من الدهر كان يقصد بها الى الانتقام من السجين وردعه عن معاودة اقتراف الجرائم بما أعد له داخل السجون من صنوف الارهاق والحرمان وضروب التعذيب والاذلال. وما فتئت السجون هناك حتى أوائل القرن التاسع عشر مباءة لأقذار وأمراض يحشد فيها الجانى الأثيم مع المدين العاجز عن الوفاء ، ومن دمغه القضاء بحكمه مع من لم تثبت ادانته ، دون تمييز أو تفرقة بالنسبة للسن ، أو الصحة ، أو الجنس (ذكر أو أنثى) ، مصفدين فى الأغلال ، لا يعصمهم من قسوة حراس السجن وبطشهم إلا ما يشترون به أنفسهم من المال . وكانت حمى السجون — كما كانت تسمى اذ ذاك — تفتك بربع عدد المسجونين كل سنة ، ويكاد الجوع والعرى وسوء المعاملة ، يودى بمن بقى .

ولكن هذه الحال ما كانت لتعمر طويلا فى القرن التاسع عشر فلم يلبث أن قام المصلحون وفى مقدمتهم "جون هوارد" بحملة شديدة على تلك النظم ، و بينوا مافيها من انتهاك لأبسط مبادئ الانسانية ؛ وما أسفرت عنه من الاخفاق الشنيع فى إدراك مايجب أن يكون الغرض من كل نظام صالح من أنظمة السجون وهو القضاء على الجريمة . فقد كان نزلاء السجون لا يبرحونها إلا وقد انتقلت عدوى الاجرام من الكبير إلى الصغير ، ومن المحترف العريق فى الاجرام إلى من زلت به القدم لأول مرة ، وقد أشربوا جميعا روح الكراهية للمجتمع ، والنقمة عليه وأصبحوا لا يصلحون لشىء غير ارتكاب الجرائم التى درسوا فى السجن أصولها . وخبروا أساليبها ؛ و بذلك فشت الجريمة ، واطردت الزيادة فى عدد نزلاء السجون .

وكان مقدرا لتلك الحملة أن تؤتى ثمارها ، وأدت جهود المفكرين والمصلحين إلى تطور نظم السجون هناك تطورا بطيئا وتدريجيا كما هى الحال فى انجلترة دائما ، و بدأ ذلك بتوفير أسباب الصحة فى السجون ، والعمل على إصلاح نزلائها ؛ و إيجاد نظام يكفل حسن

اختيار رجال السجن والرقابة عليهم . وصحب ذلك تطور فى الأغراض التى ترمى اليها هذه النظم فاختفى نهائيا مبدأ "الانتقام" من السجين ليحل مكانه مبدأ "إصلاح" السجين .

ولكن مبدأ "الاصلاح" هذا لم تتم له الغلبة إلا بعد كفاح مع مبدأ آخر ظلت له الكفة الراجحة طوال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وهو مبدأ "الردع" ومعناه أن تكون عقوبة السجن من القسوة والشدة بحيث تكفى لردع السجين عن العود إلى اقتراف الجرائم بعد مغادرته السجن ، ولردع غيره عن سلوك طريق الجريمة الذى قد يؤدى به إلى السجن وما أرصد لمثله فيه من ضروب الشقاء والبلاء .

ولقد كان للجنة "جلادستون" التى أصدرت تقريرا عن السجون سنة ١٨٩٥ معظم الفضل فى تغليب مبدأ "الاصلاح" على مبدأ "الردع" ، فقد ضمنت مقترحاتها — التى اتخذت بعد ذلك أساسا للنظم الحديثة لسجون انجلترة — المبادئ الآتية ،

١ — أن تكون أنظمة السجون من المرونة بحيث يمكن تكييفها بما يتفق مع حالة كل سجين على حدة ، وبحيث توقظ فيه غرائزه العليا ، وتنمى ميوله الفاضلة ، وتعوده الحياة المنظمة والجد فى العمل ، وتكفل له أن يكون عند مغادرته السجن خيرا مما كان عند دخوله اليه .

٢ — ألا يكلف السجين أداء أعمال أو الخضوع لنظم لا يقصد بها إلا إلى إذلاله وإرهاقه .

٣ — أن يلغى نظام السجن الانفرادى ، ونظام "الصمت" .

٤ — أن توضع أنظمة صالحة لتعليم نزلاء السجون ، وللعناية بهم بعد إطلاق سراحهم

وقد كان من رأى المحبذين لفكرة "الاصلاح" وتغليبها على فكرة "الردع" أن الردع ليس غرضا فى ذاته ولكنه وسيلة يراد بها الوصول إلى غاية معينة هى حماية المجتمع ممن يعتدون عليه بارتكاب الجرائم ، وهذا الغرض يمكن تحقيقه باصلاح هؤلاء المعتدين وتهذيبهم أثناء إقامتهم فى السجن ، ثم بمعاونتهم على سلوك السبيل السوى بعد خروجهم منه . أما بالنسبة لمن لم يسبق لهم دخول السجن فان فكرة "السجن" نفسه — لا نوع المعاملة التى يلقاها فيه والتى كثيرا ما يجهلها الفرد العادى خارج السجن — هى الكفيلة بردعه عن ارتكاب الجريمة وفيها العقوبة الكافية هى وما يصحبها من تقييد للحرية ومذلة وعار . وهل هناك عقوبة أشد مما يقاسيه المذنب من عار القبض عليه ، ومحاكمته علانية ، وما يعقب ذلك من الادانة والدخول إلى السجن حيث يستبدل باسمه رقما من الأرقام ، وبملابسه أخرى مزرية ، ويحرم من كل اختيار لنفسه ، وتملى عليه تفاصيل حركاته وسكناته ، يعيش وراء أسوار مرتفعه وأبواب مغلقة ، ويجبر على مشاطرة طعامه وشرابه وأوقات عمله ورياضته مع طغمة من الأشرار يتأذى لرؤيتهم ويألم لصحبتهم ، ويحرم أتفه الأشياء التى لا تظهر قيمتها إلا عند الحرمان منها ، كما يحرم الاتصال بأهله وأخوانه . فاذا جاء الليل خلا بنفسه

للتفكير فى حياته الخاوية ، ومستقبله المظلم ، وأسرته التى لطخها بعار جريمته وفقدت فيه عائلها وحاميها . هذه هى الأشياء التى تجعل من السجن عقوبة يخشاها الناس والتى ستظل باقية مادامت السجون قائمة .

نخلص من هذا الموجز التاريخى إلى أن الغرض الذى ترمى اليه عقوبة السجن فى انجلترة الآن هو" أن تخرج السجون رجالا ونساء خيرا ممن دخلوها وأقدر على القيام بواجبهم كأفراد فى المجتمع الحر" اجتمع على ذلك رأى المفكرين والمصلحين ، وقصدت اليه التشريعات الحديثة الخاصة بنظم السجون وبالمواد الجنائية ، وصادف ذلك هوى فى نفوس الشعب فسارع — كعادته — إلى تقديم ماوسعه من المساعدة فى هذا السبيل ، وتطوع كثير من الأفراد بجهودهم وأوقاتهم وأموالهم ليجعلوا من نزلاء السجون أعضاء جديرين بالانتساب إلى المجتمع ، يشتركون فى العمل لخيره بدلا من أن يكونوا حربا عليه .

ويسمى الانجليز هؤلاء الأفراد عمالا اجتماعيين " Social workers " وأهم أعمالهم زيارة نزلاء السجون ، والاشتراك فى تعليمهم ، وتقديم المساعدة للمفرج عنهم ، يقومون جميعا بهذه الأعمال بطريق التطوع فلا يتناولون عنها أجرا ، ومع ذلك فانه يندر أن يقصر أحدهم فى المواظبة على عمله أو فى أدائه على الوجه الأكمل .

١ — المعلمون :

كان التعليم بين نزلاء السجون فى انجلترة — ماعدا الأحداث منهم — لا يرمى حتى سنة ١٩٢٣ إلى أكثر من تعليم القراءة والكتابة للاميين منهم وإلى رفع مستوى الذين يفوقون الأميين قليلا ، وكان يقوم به بعض موظفى السجون . أما فى تلك السنة فقد رأى قومسيون السجون — وهو يقابل مصلحة السجون فى مصر — ان التعليم بحالته التى كان عليها كان محدود الأغراض محدود النتائج — ولما كانت ميزانية السجون لاتسمح بأى توسع فى ذلك السبيل فقد رأى القومسيون أن يجرب الاستعانة بخدمات المتطوعين من الخارج على توسيع نطاق التعليم فى بعض السجون وقد أسفرت التجربة عن نجاح عظيم شجع على إدخال هذا النظام إلى باقى السجون المحلية .

تغيرت بهذا سياسة التعليم فى السجون تغيرا اساسيا ، فلم يعد يقصد به الى تحسين مستوى المسجونين العلمى وكفى ، بل الى مقاومة الركود الفكرى الذى يترتب حتما على الحياة بين جدران السجون والى اعداد السجين لحياته المستقبلة خارج السجن بتزويده بما يبعث فى ذهنه الحياة والنشاط ، ويجعله أقدر على فهم نفسه والتعبير عنها .

ويتلقى المسجونون دروسهم فى المساء بعد انتهاء ساعات العمل . ومواد الدراسة كثيرة ومنوعة ولا تقتصر على المواد المدرسية كالتاريخ والرياضة واللغات الحديثة ، أو المواد ذات الصبغة العامة كالتمثيل وأدب اللغة والاسعاف ، بل تشمل أيضا المواد التى تدهم

لشغل بعض الوظائف أو الاحتراف ببعض الحرف مثل الاختزال ومواد التجارة وفلاحة البساتين الخ . ويقوم بتدريس هـذه المواد جميعا المدرسون المتطوعون يعاونهم بعض موظفى السجن بطريق التطوع أيضا بعـد الانتهاء من أعمالهم . وقـد بلغ عدد المتطوعين للتدريس من خارج السجون فى سنة ١٩٢٩ أى بعد ست سنوات فقط من استحداث هذا النظام أربعمائة مدرس فى السجون المحلية .

ولمعاونة مدرى السجون فى وضع خطط التعليم وفى انتقاء المدرسين اللائقين يعين لكل سجن مستشار للتعليم من بين الرجال البارزين فى المنطقه التى يوجد فيها السجن يكون له من المؤهلات والخبرة السابقـة بالتعليم ما يجعل لآرائه قيمـة كبيرة فى توجيه سياسة التعليم فى السجن . ويقوم هذا المستشار بعمله بطريق التطوع أيضا .

وتعقـد من حين لآخر مؤتمرات من مستشارى التعليم والمدرسين وأعضاء قومسيون السجون لمناقشة المبادئ التى يقوم عليها التعليم ، والمسائل اليومية ، وعلاقة التعليم باعمال المتطوعين وأعمال رجال السجون .

وتلقى على نزلاء السجون محاضرات دورية فى شتى الموضوعات والشؤون يتطوع بإلقائها بعض من يهتمون من الخارج لخير المسجونين وتثقيفهم .

٢ — الزائرون الاجتماعيون :

يغلق باب حجرة السجين عليه كل يوم من الساعة الرابعة أو الخامسة مساء حتى صباح اليوم التالى فلا يبرحها الا فى الأوقات القليلة التى يتلقى فيهـا دروسـه أو يستمع لاحدى المحاضرات ، وهى فترة يقاسى فيها السجين كثيرا من الملل والشعور بالوحدة . ولا يجـد فيها ما يصرفه عن التفكير فى حظه العاثر ومستقبله المظلم الا ما قـد يكون لديه من الكتب وما يكلف به من العمل . ولكن هذه لا تجدى كثير فى هذا السبيل فما كل سجين بقادر على أن ينصرف بتفكيره الى القراءة وقتا طويلا ، والعمل الذى يفرض على السجين اداؤه فى حجرته عمل ممـل متشابه لا يلبث السجين بعد قليل من المران أن يفرغ منه فى قليل من الوقت .

هـذه الفترة إذن هى الوقت الذى يكون فيـه لاتصال السجين بشخص من العالم الخارجى أكبر الأثر فى نفسه ، شخص لا تربطه صلة باعمال السجن الرسميـة ، ولا يتلقى أجرا عن عمله بل يأتى مدفوعا بمحض الرغبة فى إسعاد السجين والترفيه عنه : يتحدث اليـه فى الأمور العادية ، والحوادث الجارية ، وشؤون أسرته ، ويقضى اليـه السجين بهمومه ومتاعبه ، ويعترف بأخطائه ، ويستشيره فى الكتب التى يقرأها والدروس التى يتلقاها ، ويضعان معا خطط المستقبل الذى ينتظر السجين بعد إطلاق سراحه ، وبهـذا ينصرف تفكيره عما لا جدوى فيه من الافكار المظلمة الى آفاق جديدة وآمال فى النهوض من كبوته .

هذا الى ما يبعثه فى نفسه من الشعور بالكرامة ما يرده من أن هناك من يتجشم مشقة الحضور لزيارته والتحدث اليه والاهتمام بشؤونه الخاصة .

هذا هو الدور الذى يقوم به "زائر السجين" - أو على الأصح بعض هذا الدور، فان فى وسعه كذلك أن يبذل معونته فى تمكين السجين من الافادة اكثر ما يمكن من وقته ، وأن يمكن بعد طول اتصاله به والفوز بثقته ، من تغيير وجهة نظره فى الحياة ، ومن اقتلاع جذور الرذيلة وحب الذات من نفسه ، تنميته شعوره بواجبه قبل اخوانه فى الوطنية .

وقد بدئ بهذا النظام أول الأمر فى سجون النساء سنة ١٩٠١ وأسفرت التجربة عن نجاح عظيم . ومع أنه لم يطبق فى سجون الرجال الا فى سنة ١٩٢٢ فقد كان لا يزال هناك من يعتبرونه عملا جريئا قد يؤدى الى مالا تحمد نتيجته ، ومن هؤلاء بعض رجال السجون الذين لم يرتاحوا الى فكرة دخول هؤلاء "الهواة" الى حرم السجن ، وتسلمهم مفاتيح "الزنزانات" ولكن هذا النظام مالبث أن حقق الغرض منه وكان رجال السجون فى مقدمة من شهدوا له ، ولم تنقض الا عشر سنوات حتى أصبح عدد زائرى سجون الرجال ستمائة زائر .

ويتألف الزوار من مختلف طبقات المجتمع ، فمنهم ذوو الحرف المتواضعة وهم خير من يتحدث كرجل الى رجل مع السجين الذى من طبقتهم ، وأقدر على التفاهم معه وتعرف حاجته . ومنهم رجال الأعمال المبرزون ، وذوو الثقافة العالية وهؤلاء يمهد اليهم بزيارة المثقفين من نزلاء السجون والذين من طبقات أعلى من غيرهم .

ويعهد الى كل زائر بزيارة ثمانية أو عشرة من السجناء . وليس لكل سجين زائر مكلف بزيارته اذ المتبع أن يبحث "مجلس الاستقبال" فى السجن حال كل سجين ثم يقرر ما اذا كان من المفيد تكليف أحد الزائرين بزيارته . وتحدث الزيارة كل أسبوع مرة ، وليس للزائر أن يزور غير من عهد اليه بزيارتهم .

وتقوم لزائرات من النساء ، الى جانب زيارتهن لسجون النساء ، بزيارة المسجونين الذكور الذين تقل سنهم عن احدى وعشرين سنة .

ويختار قومسيون السجون الزائرين بناء على توصية من مدير السجن وقسيسه ، وعليهما قبل التوصية أن يتأكدا تماما من كفاية الزائر لهذه المهمة .

٣ — لجان الزيارة :

لكل سجن من سجون انجلترة لجنة زيارة تتألف من أعضاء متطوعين يختارون من بين الرجال والنساء الذين لهم خبرة خاصة باحوال السجون كرجال القضاء وكبار موظفى السجون السابقين . ومهمة هذه اللجان الاشراف على ادارة السجن ، والاستماع الى ما يقدمه نزلاؤه من الشكاوى ، وتوقيع العقوبات التى لا يتناولها اختصاص مدير السجن . ولها حق تفتيش

السجن ، وزيارة جميع أقسامه ، واخطار وزير الداخلية بالمخالفات التى تقع من الموظفين ، وتقديم تقارير سنوية له عن السجن وموظفيه ونزلائه .

ولعل أهم من ذلك كله أن هذه اللجنة بطبيعة تكوينها من أعضاء غير موظفين تعتبر هيئة محايدة يجد فيها المسجونون ضمانا لانصافهم وحمايتهم من عسف الموظفين وإساءة استعمال سلطتهم .

٤ — جمعيات مساعدة المسجونين المفرج عنهم :

لعل أخطر وقت فى حياة السجين هو الفترة بين اطلاق سراحه من السجن وبين عثوره على عمل يرتزق منه . فهو يجد نفسه قد انتقل فجأة من حياة لدعة والنظام الآلى فى السجن الى عالم ملىء بالحركة والمنافسة التى لا هوادة فيها ولا رحمة وقد أصبح هدفا لنظرات الريبة والاحتقار تلاحقه أنى سار ، فهذا صديق ينأى عنه بوجهه ، وهذا آخر لا يكاد يسلم عليه حتى ينصرف عنه . ولكنه قد لا يعدم مع هذا استقبالا حارا من فريق معين من الناس هم زملاؤه السابقون فى الاجرام ، فهؤلاء — ان وجدوا — لا يكادون يرونه حتى يقبلوا عليه هاشين باشين ، يحاولون استعادته الى حظيرتهم ، ويمهدون له السبيل الى ارتكاب جريمة جديدة .

هذا الوقت إذن أنسب الأوقات للتقدم بالمساعدة الى السجين ، وينبغى أن تكون هذه المساعدة سريعة وكافية اذا كان يراد وضع أساس صالح لحياته المستقبلة فى العالم الحر ، ولهذا الغرض قامت فى انجلترا جماعات خاصة باسم "جمعيات مساعدة المسجونين المفرج عنهم" تختص كل منها بنزلاء بعض السجون ، وتتألف من أعضاء متطوعين لا يتناولون أجرا عن عملهم ، وليس ذلك فحسب بل عليهم أن يدفعوا للجمعية اشتراكات سنوية . ومن هذه الاشتراكات ، ومن التبرعات التى يتقدم بها بعض أهل الخير ، والاعانة السنوية التى تقدمها الحكومة تتوافر المبالغ التى تمكن هذه الجمعيات من تقديم خدماتها القيمة .

وقد وضعت الحكومة أنظمة لتوحيد طرق تقديم المساعدة والتوفيق بين أعمال الجمعيات المختلفة ، فكل جمعية تختص بتقديم المساعدة للمفرج عنهم الذين أرسلتهم الى السجون محاكم تقع فى دائرة عمل هذه الجمعية .

ويبدأ التفكير فى مساعدة السجين بعد دخوله السجن مباشرة ، إذ يحضر مندوب الجمعية الى السجن وبعد الاطلاع على البيانات الخاصة بالسجين كمدة العقوبة الموقعة عليه ، وتاريخ الافراج عنه ، وآخر حرفة كان يشتغل بها يقابل السجين ويتحدث اليه ليتعرف مدى حاجته الى المساعدة ونوعها ، ويرسل بذلك كله تقريرا الى الجمعية . وقبل اطلاق سراح السجين بوقت قصير يزوره مندوب الجمعية مرة أخرى وقد يقدمه الى اللجنة الفرعية التى تجتمع داخل السجن لتقرر نهائيا ما يجب تقديمه اليه من المساعدة مستهدية برأى المرشد الاجتماعى الذى عالج

ما يكون عضوا فيها. فاذا جاء اليوم الذى يطلق فيه سراح السجين كان قد تم اعداد ما يحتاج اليه من المساعدة وأهمها العمل الذى تؤهله له خبرته السابقة أو التى اكتسبها فى السجن ، والذى يساعده على بدء صفحة جديدة وعلى أن يحيا حياة الجد والاستقامة .

وتشمل المساعدة التى تقدمها هذه الجمعيات ، عدا ايجاد عمل مناسب للسجين ، مده بنفقات السفر الى موطنه الأصلى أو الجهة التى يزمع الاقامة فيها ، و بما يحتاجه من ملبس ، ومسكن مؤقت ، وأدوات يباشر بها عمله أو سلع يتجر فيها ، ونفقات المعيشة التى تكفيه حتى يبدأ فى الكسب من عمله الجديد ، كما تشمل كذلك مساعدة زوجه واسرته .

ولا تقتصر مساعدة الجمعية على الأمور المادية ، ولكنها توالى المفرج عنه بالنصح والارشاد ، وتحبوه بالعطف الأخوى والمعونة الأدبية ، وبكل ما يساعد على اصلاح مستقبله وتسديد خطاه فى طريقه الجديد ، طريق الجد والاستقامة .

وقد تستعين هذه الجمعيات بغيرها من الجماعات الخيرية مثل جمعيات جيش الكنيسة ، وجيش الخلاص ، والجمعيات الخاصة بالعميان أو المصابين بأمراض عقلية .

وللمفرج عنهن من النساء ، والمفرج عنهم من الاحداث جمعيات أخرى للمساعدة لاتختلف اعمالها عما تقوم به الجمعيات المختصة بالرجال الا فيما يتعلق بالحاجات الخاصة لكل فريق منهم

* * *

ذلك شرح موجز لأهم وجوه الخدمة الاجتماعية فى سجون انجلترة ، ولما يتقدم به الافراد هناك من جهود لها أثرها الكبير فى مقاومة الجريمة واصلاح المجرم . فهل آن لنا أن نتشرب نحن المصريين هذا الروح الصالح ونتبع هذه القدوة الحسنة ، فنبذل بعض ما آتانا الله من جهد أو وقت أو مال فى سبيل اصلاح فريق من ابناء هذا الوطن حاد به الحظ العاثر والظروف القاسية عن طريق الهداية والرشاد ؟

نرجو ذلك !

على حسنى ابراهيم